

## الانسجام في كتابات الجاحظ بين مقام العلم ومقام العمل

أ/ سعيد إبلون

جامعة بجاية - الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018/08/12 تاريخ القبول: 2018-10-12 تاريخ النشر: 2019-02-01

**الملخص:** نُعتت كتابات الجاحظ في كثير من الأحيان بالفوضى وعدم ترابط الأفكار والمواضيع ويهدف هذا المقال إلى دحض هذه الفكرة بإبراز انسجام هذه الكتابات عبر التزام الجاحظ مبادئ عامة لا يحيد عنها أثناء مناقشة المسائل وتشقيقها وإبداء الرأي فيها. ومن أجل بسط الفكرة وتحليلها، اخترنا أصل "المنزلة بين المنزلتين" عينة لها، فرأينا كيف التزم الجاحظ هذا الأصل وعده دعامة أساسية ومرجعية نظرية أطر بها الكثير من القضايا والمواضيع، ورأينا كذلك كيف ظهر هذا الأصل عنده في هيئات مختلفة، وفي ميادين معرفية عديدة.

**الكلمات المفتاحية:** الجاحظ، الانسجام، الالتزام، المنزل بين المنزلتين، الوسطية.

### Harmony in the writings of Al-Jahiz through a propeller between the denominator of knowledge and the denominator of practice.

**Abstract:** The writings of Al-Jahiz are said to be a chaos due to lack of coherence as far as ideas and themes are concerned. This article aims at refuting this idea by highlighting the harmony of these writings through Al-Jahiz's commitment to general principles that he never deviates from while discussing and analyzing issues, stating his own point of view. In order to expose and analyze this idea, we have chosen the asset of "status between two status" as a sample. We, hence, noticed how Al-Jahiz committed his writing to this asset and considered it to be a basic pillar and atheoretical reference with which he framed much of his issues and themes. We also noticed how this asset is apparent in many forms and in various fields of knowledge.

**Key words:** Al-Jahiz, coherence, commitment, status between two status, the middle.

**توطئة: الأدب والافتنان:** كثرت الدراسات والأبحاث التي تشغل على كتابات الجاحظ في العصر الحديث والمعاصر كثرة لافتة للانتباه، والكثرة لا تدل بالضرورة على وقوع تلك الدراسات والأبحاث في إمكان تكرار بعضها للبعض الآخر، بل إن

الناظر فيها ليخلص إلى أنها لبنات تعاضدت وانتظمت، شكّلت مجتمعة تاريخاً متميّزاً لقراءة الظاهرة التراثية الجاحظية من جهة، وسعت، من جهة أخرى، إلى إضاءة ما أمكن من مناطق في المساحات الشاسعة التي تحتلّها تلك الظاهرة، وسبر إمكاناتها المعرفية التي لا تكف عن التحقّق والتجدد كلّما تغيّر أفق قراءتها، أو اختلفت المفاهيم الإجرائية التي نقاربها بها.

ولعلّ من الأسباب التي أدت إلى هذه الكثرة وهذا الثراء، أنّ الجاحظ نحاً في مؤلفاته، وعلى رأسها كتاب "البيان والتبيين" وكتاب "الحيوان"، منحى التشتيت والتفريق لا التجميع والتبويب، ولقد برز هذا المنحى بجلاء في مستويين اثنين: برز التشتيت الأوّل في تفريق الموضوع الواحد وتوزيعه على صفحات عديدة ومتباعدة، وعلى مؤلفات مختلفة في بعض الأحيان، وبرز التشتيت الثّاني في سمة الافتتان المسيطرة على كتابات الجاحظ ومن هذا حذوه من علماء لغة وأدب، فـ"لقد حرص علماء اللّغة والأدب على هذه السّمة، سمة الافتتان في تأليفهم، حتّى صار ذلك عندهم، منذ المرحلة الأولى من مراحل التّأليف في الثقافة العربية، طريقاً سائلاً وسنة متبعة"<sup>1</sup>.

ولا نعني بالافتتان إلّا ما يحمله الأصل اللّغوي للكلمة من معانٍ\*، ويلتقي الافتتان في كثير من أبعاده، فيما يبدو، مع "الأدب" كما مارسه النّخبة العالمة ورسمت معالم مفهومه في الفترة التي ألّف فيها الجاحظ كتبه؛ فترة شهدت، كما هو معروف، نقلة نوعيّة في حضارة العرب وثقافتهم حيث تمّ الانتقال من المشافهة إلى التدوين، وبرزت أولى معايير الكتابة الأدبيّة، وإذا كان الافتتان يدلّ في بعض معانيه على التوسّع والاشتقاق والأخلاق والتّخليط، فإنّ هذه المعاني نفسها قد برزت، ولو بشكل مختلف في مفهوم الأدب، حيث استقرّ الرأي، بتأثير من التقاليد

الشَّفوية المتوارثة، أنّ الأدب هو "الأخذ من كل علم بطرف"، ولقد كان ابن خلدون "أصدق تعبيراً وأوضح بياناً حين جعل الافتتان هو موضوع علم الأدب"<sup>2</sup>، والأدب عنده، تبعاً لهذا، لا موضوع له، لأنّ المقصود منه ثمرته التي هي الإجادة في فنيّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فكلّ ما يمكن أن يسهم في تحصيل ملكة البيان والبلاغة، يصلح لأن يدخل في مجال الأدب<sup>3</sup>، ومن أجل هذا، فإنّ العرب "إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف"<sup>4</sup>.

ولا شكّ أنّ من خير الأمثلة التي تجسّد فيها هذا المفهوم، الذي علق بالأدب طويلاً، تجسّداً نظريّاً وعمليّاً هي مؤلفات الجاحظ، ولقد كان الجاحظ واعياً تمام الوعي أنّ صفة الأدبيّة، وصفتي الحسن والنفع، لا يصطبغ بها الكتاب إلّا إذا أخذ مؤلّفه من كل علم بطرف، وفي هذا يقول الجاحظ "جملة الكتاب، وإن كثر عدّد ورقه، أنّ ذلك ليس مما يملّ، ويُعتدّ عليّ فيه بالإطالة، لأنّه وإن كان كتاباً واحداً فإنّه كتب كثيرة، وكلّ مُصحّف منها فهو أمّ على حدة، فإن أرادَ [أي القارئ] قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأوّل حتّى يهجم على الثّاني، ولا الثّاني حتّى يهجم على الثّالث؛ فهو أبداً مستفيدٌ ومستطرفٌ، وبعضه يكون جماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً. ومتى خرج من آي القرآن صارَ إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صارَ إلى خبر، ثمّ يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعلّه أن يكون أثقل، والمال إلى إليه أسرع، حتّى يفضي به إلى مزج وفكاهة، وإلى سُخفٍ وخُرافة، ولست أراه سُخفاً، إذ كنتُ إنّما استعملتُ سيرة الحكماء، وآداب العلماء"<sup>5</sup>.

إنّ نظرة سريعة في محتويات "الحيوان" أو "البيان والتبيين" تكشف، بناءً على ما سبق، أنّ هذا الوصف الذي خصّ به الجاحظ المنهج الواجب إتباعه أثناء تأليف الكتب، هو مبدأ عام ماثّل في الكتابين وملتزّم به على طول صفحاتهما، وترتّب عن هذا أن أضحت مؤلفات الجاحظ عامّة ميداناً لالتقاء الأجناس الأدبيّة وتفاعلها، ومكاناً لمزاوجة لا متناهية لصنوف الأقوال وأنواع الخطابات التي لا تعترف بحدود الأزمنة، ولا الأمكنة، ولا الثقافات، ولا اللّغات، ولا الديانات، ولا العقائد<sup>6</sup>.

**كتابات الجاحظ من منظار الدّارسين المحدثين:** نظر كثير من الدّارسين إلى ميزة الافتتان التي طبعت كتب الجاحظ خاصة، والكتب التي ألّفت في العصر العباسي عامة، من زوايا مختلفة ومتباينة، فمنهم من نظر إليها نظرة تشخيص ووصف محايد، عدّت بموجبهما مؤلفات الجاحظ دائرة معارف غير منتظمة شبيهة بالمعارض الحديثة، فإذا كانت هذه المعارض تعرض صناعات مختلفة من كل جنس ولون وقيمة وحجم، فإنّ الجاحظ يعرض في كتبه مختلف ألوان الثقافة التي عاصرته من عربية، وفارسية ويونانية وهندية، وينتقل بين المواضيع بصورة مفاجئة؛ فبينما يتحدّث عن حديث شريف، ينتقل للحديث عن حكمة يونانية، وبينما يتحدّث عن الزرادشتية والمانوية، إذ هو يتحدّث عن الإسلام والنّبوة، وبينما يتحدّث عن العرب وحضارتهم وشعرهم، ينقلك فجأة إلى الحديث عن نظرية من نظريات المعتزلة، ليس هذا فحسب، بل إنّ الجاحظ يسعى أيضاً لأن تكون كتبه معارض لأساليب مختلفة وعواطف شتى؛ فبينما ينهمك في الجدّ، ويسيطر على الفكر، ويثير العواطف الدينيّة، إذ به يفاجئك بسخرية لازعة وفكاهة ماجنة وبألفاظ فاحشة جارحة<sup>7\*\*\*</sup>.

وزيادة على النظرة السابقة التي حاولت وصف ميزة الافتتان التي وسمت كتابات الجاحظ وتشخيصها، نظر دارسون آخرون إلى هذه الميزة محاولين تحليلها وإرجاعها إلى الأسباب الحقيقية الواقعة وراء تحولها إلى ظاهرة عامة طبعت كتب الجاحظ وهيمنت عليها، ولعل أهم تلك الأسباب مرتبطة بـ "غزارة المعارف التي خزنتها حافظة أبي عثمان بحيث غدت عبئاً عليها أرادت التخلص من ثقلها بإفراغها كيفما اتفق دون فصل بينها ودون تبويب أو تنظيم"<sup>8</sup>.

ومن الدارسين من حاول تأويل الميزة السابقة، بإبراز مقاصدها القريبة منها والبعيدة، ولعل أول المقاصد تلك التي لم يفتأ الجاحظ يشير إليها كلما اقتضى سياق الحديث ذلك، وهي رغبته الملحة في جذب انتباه القارئ ودفع الملل عنه، بتعديد الموضوعات وتنويعها، ومن أدل النصوص التي خصصها الجاحظ لهذا الغرض نصه الآتي الذي مزج فيه بين وصف منهجه في التأليف، والتلميح إلى المقاصد التي يتوخى تحقيقها أثناء فعل القراءة والتلقي حيث يقول: "ولولا سوء ظني بمن يُظهرُ التماس العلم في هذا الزمان، ويذكر اصطناع الكتب في هذا الدهر، لَمَا احتجْتُ في مداراتهم واستمالتهم، وترقيق نفوسهم، وتشجيع قلوبهم، مع كثرة فوائد هذا الكتاب، إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا الاعتذار [...] فإن ملّيتَ الكتابَ واستَقَلَّتْ القراءة، فأنت حينئذٍ أعدرُ، ولحظَّ نفسك أبخسُ، وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوره لك في أحسن صورة، وأقلِّبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرجُ من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرجُ من الحديث إلا إلى الشعر الصحيح، ولا تخرجُ من الشعر الصحيح الطريف إلا إلى المثل السائر الواقع، ولا تخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى القول في طرف الفلسفة؛ والغرائب التي صحَّحتُها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها

البرهان، والأعاجيب التي للنفوس بها كلف شديد، وللعقول الصحيحة إليها النزاع القوي.

ولذلك كتبه لك، وسفته إليك، واحتسبت الأجر فيك.

فانظر فيه نظر المنصف من الأكفاء والعلماء أو نظر المسترشد من المتعلمين والأتباع فإن وجدت الكتاب الذي كتبه لك يخالف ما وصفت فانقصني من نشاطك له على قدر ما نقصت مما ينشطك لقراءته<sup>9</sup>.

إن أقل ما يمكن التعليق به على هذا النص والنصوص السائرة في فلكه، وكم هي كثيرة، أنها تعدّ مبدأ مؤسساً لطريقة في الكتابة متميزة عند الجاحظ، تحطّ القارئ وأحواله السيكلوجية في صدارة اعتباراتها، فلكي لا يملّ هذا القارئ الكتاب ولا يستثقل قراءته، على الكاتب أن يسعى إلى مداراته واستمالاته، وبعث نشاطه وحيويته، وترقيق نفسه، وتشجيع قلبه.

ولعل هذا الأمر هو الذي دفع بعض الدارسين إلى أن ينظروا إلى الميزة السابقة، ميزة الافتتان أو الأخذ من كل علم بطرف، نظرة بيداغوجية لما لها من تأثير على القارئ المتعلم، وفعالية على تحصيله المعرفي، وعلى رأس هؤلاء الدارسين نذكر محمد عابد الجابري الذي يقول: "سلك [الجاحظ] بيداغوجية بيانية في مؤلفاته وبكيفية خاصة في كتابيه الأساسيين "الحيوان" و"البيان والتبيين"، بيداغوجية تضع السامع وأحواله النفسية موضوع الاعتبار الكامل [...] ولقد كان الجاحظ واعياً تمام الوعي بنوع طريقته في الكتابة مؤمناً بجدواها وتأثيرها [...] فلقد اختار طريقته في الكتابة بوعي ولأغراض بيداغوجية معتبرا إياها أكثر بيانا أي أكثر امتلاكاً للسامع وجذباً له. ومن حقنا أن نسمي تلك الطريقة في الكتابة بـ "البيداغوجية البيانية"<sup>10</sup>.

ومن الدارسين من سعى للكشف عن مقاصد أرحب وأوسع حين جعلوا الكتابة عند الجاحظ سعيًا للمزاوجة بين العقل والأدب، فرأى مصطفى ناصف، مثلاً، أنَّ تلك المزاوجة قد تحققت عبر عملية التآليف بين الثقافة العربية متمثلة في الشعر وكلام الأعراب والأخبار، والثقافة اليونانية متمثلة في الخصوص فيما كتبه أرسطو، والثقافة الكلامية التي ولّدها المعتزلة، ومزج الجاحظ هذا كلّ بنبرته الشخصية التي يمكن الإحالة عليها بكلمتي الصداقة والمرح<sup>11</sup>.

ويؤول هذا التآليف والمزاوجة والمزج، حسب رأي مصطفى ناصف دائماً، إلى تشكّل بيان جديد هو الكتابة النّزهة، وللنّزهة مقاصد شتى يظهر الواحد منها تلو الآخر، حينما نعرف أنَّ النّزهة أكبر من الموضوع الواحد والثبات على نظام واحد من الأفكار، فمن خلال النّزهة يقبل الجاحظ الكثير، ومن خلال الكثير يتشكّل ما يمكن أن يكون مسرحاً نلتقي فيه القيم والملاحظات الموضوعية في نسيج جديد، فالملاحظة تسلم بطريقة ما إلى القيمة بمثل ما تنزل القيمة عن أحكامها إلى الملاحظة، وهذا هو التدريب الأساسي على حرية الفكر وكمال الشخصية، واستيعاب المتعارضات، والتّعالّي على الشّعور والعلم بإدخالهما في تكوين بيان، بل نزهة لا هي بالشّعور ولا هي بالعلم، إنّها النّزهة التي تتجاوز العلم والشّعور إلى النّقا؛ ثقافة تعلو على الغرض الواحد، والطريق الواحد، والنّظرة الواحدة، وتصبو إلى إنكار البطولة الفرديّة، وتشويه النّقا الأولى وإخفائها وقلبها<sup>12</sup>.

وإلى جنب هذه النّظرات التي سعى بعضها إلى تشخيص طريقة الكتابة عند الجاحظ ووصفها، وسعى بعضها الآخر إلى الكشف عن أسبابها ومقاصدها، نعثر على نظرات أخرى عدّت هذه الطّريقة سبباً لانتسام كتب الجاحظ وأغلب الكتب التي ظهرت في تلك المرحلة\*\*\*\* بالفوضى والخلط والبعثرة في أكثر من مستوى، فلقد

لاحظ حمّادي صمود، علي سبيل التّمثيل لا الحصر، حينما اشتغل على كتب الجاحظ وانكبّ على دراستها، غزارة مادّتها وتنوّعها وتداخلها إلى حدّ التناقض أحياناً، وعدم خضوعها لترتيب واضح، وأقرّ بأنّه ليس في طريقة صاحبها ما ينمّ على أنّه يباشرها من تصوّر منسّق وعلى أساس تنظيم محكم، كما تبين له كذلك أنّ أغلب الدّراسات التي اشتغلت على آثار الجاحظ قد أجمعت على أنّ السّمة الغالبة عليها هي سمة الفوضى وقلة الإحكام<sup>13</sup>.

ولا نكاد نمضي في قراءة ملاحظات حمّادي صمود وتعليقاته التي خصّ بها كتب الجاحظ ومنهج الكتابة فيها، حتى نجده في موضع غير بعيد يستدرك قائلاً: "لم نقتنع ألاّ ينطلق مؤلّف في منزلة الجاحظ دقة تحليل وحكم وحصافة في تقليب المسائل وتشقيقها من تصوّر متناسق أنّ كالممتناسق يختفي وراء هذه الفوضى الظاهرية"<sup>14</sup>.

ولنا أن نسأل بعد هذا الافتراض: هل من سبيل إلى استجلاء هذا التّصوّر المتناسق أو بعض أشكاله عند الجاحظ؟ ألاّ يمكن النّظر إلى كتب الجاحظ نظرة أخرى تختلف عن النّظرات السّابقة؛ نظرة تتطّلق من إمكان وجود خيوط ورائية غير ظاهرة رابطة بين مختلف المواضيع والأفكار التي تطرّق إليها الجاحظ بالوصف والدّراسة والتحليل، والتي وسمت في كثير من الأحيان بالفوضى والتّشتّت وعدم الانسجام؟ ألاّ يمكن العثور في كتب الجاحظ على منطق داخلي يشكّله مكوّنان اثنان: مكوّن أول تشكّله مبادئ عامّة ثابتة آمن الجاحظ بصحّتها وفعاليتها ومتانتها، أرسى عليه مكوّنًا ثانياً عبارة عن منظومة فكرية ومعرفية متعدّدة المناحي والتّخصصات؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألاّ يمكن الحديث عن الالتزام عند الجاحظ باعتبار عدم حياده عن مبادئه حينما يبحث في المسائل المختلفة؟ ألاّ

يجوز في آخر المطاف عدّ هذا الالتزام، الذي نفترض تحقّقه في كتابات الجاحظ على أكثر من صعيد، مكتوّنا بارزا أسهم في خلق انسجامها العام؟ لا ندّعي من خلال هذا المقال أنّ فينا القدرة على الإحاطة التّامة بهذا الموضوع، ولا ندّعي أيضا أنّنا نستطيع الإجابة عن الأسئلة السّابقة جميعها، لأنّ هذا لا يسعه المقال ولا يحتمله، فحسبنا أن ندلّ، عبر أنموذج واحد فقط، على إمكان حصول الانسجام في كتابات الجاحظ من خلال إظهار التزامه بمبادئ عامة يبلور انطلاقا منها مختلف أفكاره وآرائه وتحليلاته. ولعلّ أفضل النّماذج التي تمكّن من تناول الموضوع بقدر كاف من الإحاطة والإلمام، هي تتبّع تجليات مبدأ "المنزلة بين المنزلتين" في نصوص الجاحظ، وإبراز سيران روحها في الأفكار والآراء التي بثّها في مجالات معرفية مختلفة، وهذا ما سيؤدي حتما إلى تأكيد فرضية أنّ الالتزام في كتابات الجاحظ بمثابة آلية تُقرّب بين المتباعدات، وتألّف عبرها المختلفات، وتخلق انسجاما وراء الفوضى التي تتبدّى للقارئ في الوهلة الأولى.

لا بدّ أن نشير، ونحن في هذا السياق، إلى أنّ عنوانه المقال وفق الصّيغة "الانسجام في كتابات الجاحظ عبر المراوحة بين مقام العلم ومقام العمل" قد كان لعدّة اعتبارات، وأوّل هذه الاعتبارات هي دلالة العنوان على انطلاق المقال من فرضية أنّ تحقّق الالتزام الذي أشرنا إليه هنا بالمراوحة بين مقام العلم ومقام العمل، والذي وصفناه فيما مضى، يمكن أن يكون عاملا هاما يسهم في انسجام كتابات الجاحظ، وثاني الاعتبارات هو تلميح العنوان إلى إمكان تحقّق الانسجام في هذه الكتابات في مستويات عميقة جدّا من خلال رصد العلاقات الخفيّة الرّابطة بين النّصوص، والكشف عن استمرارية دلالية في المختلف والمتباعد وغير المتجانس.

وأما ثالث الاعتبارات فكامن في الدلالة المقصودة من وراء استثمار عبارة "مقام العلم ومقام العمل"، إذ نرى أنّ هذه العبارة الخلدونية\*\*\*\* هي الأقدر على التعبير عن خصوصيات الالتزام كما هو محتمل اتّصاف الجاحظ به في كتاباته.

**أصل "المنزلة بين المنزلتين" في كتابات الجاحظ: التّجليات والهيئات: لا شكّ** أنّ أصل "المنزلة بين المنزلتين" يكتسي أهميّة قصوى في ظهور المعتزلة الذين لم يسمّوا كذلك، في رأي كثير من الباحثين، إلّا لقولهم باعتزال مرتكب الكبيرة المؤمن والكافر ووجوده في منزلة وسط\*\*\*\*، ولا شكّ أيضاً أنّ المتصفح المتريّث لكتابات الجاحظ سيلحظ أنّ تعلّقه بهذا الأصل كان تعلّقاً منقطع النظير، فهو عنده القطب الذي يدور عليه اعتزاله وتفكيره وتصوّره للأشياء، فحينما أراد الجاحظ أنّ يعرف الاعتزال ويذكر سبب ظهوره، لم يكن أصل "المنزلة بين المنزلتين" إلّا دعامة الاعتزال الأساسية وروحه التي يستمدّ منها حياته. ولعلّ أهمّ النصوص المبيّنة لهذا الأمر قوله: "سأقيمك على الواضحة [أي الظاهرة ظهوراً بيّناً لا خفاء فيه كوضح الصّبح] وأقف لك على الجادة [أي وسط الطريق]، بل على العلم العظيم والمنهج الفسيح إن شاء الله؛ وخير الأقاويل بل أعدلها وأرضاها عند الله أقصدها. ولذلك اخترنا الاعتزال مذهباً وجعلناه نحلة ومفخراً، وسنقدّم قبل القول في هذه المسألة قولاً فافهمه[...]. قالت المرجئة: "القاذف مؤمن"، وقالت الخوارج: "القاذف كافر"، وقال بعضهم: مشرك؛ وقالت البكرية: "بل هو أسوأ حالا من المشرك، والمنافق أشدّ عذاباً من الكافر"؛ وقالت المعتزلة: "هو فاسق كما سمّاه نصّاً ولا نسّميه كافراً فيلزمنا أن نلزمه أحكام الكفار وليس ذلك حكمه، ولا نقول: مؤمن، فيلزمنا ولايته ومدحه وإيجاب الثّواب له [...]. وقالت الخوارج في قتال الفئة الباغية: "تسير فيها بالإكفار وبالسيبي والغنائم وبإتباع المدبر والإجهاز على

الجريح"؛ وقالت المرجئة: "لا قتال"؛ وقالت المعتزلة بالقول المرضي وهو إيجاب القتال على جهة الدفع لا على القصد إلى القتال[...]. فلم نفرط إفراط الخوارج ولم نقصر تقصير المرجئة، ودين الله بين المقصر والغالي، وهذا الاشتقاق، وهو التوسط والاقتصاد، هو الاعتزال لغو من غلا وتقصير من قصر<sup>15</sup>.

لا تكمن أهمية هذا النص فيما يحمله من معلومات، أو في أن العمود الذي نهضت عليه عمارته، مستمد بالكامل من "المنزلة بين المنزلتين"، بل إن أهميته كامنة، كما ستكشف عنه الصفحات الآتية، في أن هذا العمود، الذي أشار إليه الجاحظ بالمنطقة الموجودة بين الإفراط والتقصير تارة، وعبر عنه بالتوسط والاقتصاد تارة أخرى، قد تحول بين يديه إلى منهج فسيح، وأداة إجرائية طيعة وجدّ فعالة قادرة على التأقلم مع الحالات المختلفة والمواضيع العديدة، استطاع بفضلها تحديد الكثير من مفاهيمه، ثم إن تحقق هذه الأمور سبترتب عنها القول، بلا ريب، بأن أصل "المنزلة بين المنزلتين" يعدّ بحق النواة المركزية التي استقطبت العديد من أفكار الجاحظ ونصوصه.

وقبل أن نمضي في الكشف عن مواضع تجلّي الأصل السابق في كتابات الجاحظ وكيفياته، جدير بنا أن نشير إلى أن الجاحظ لم يدّع سبقه أو سبق المعتزلة في دعوتهم إلى التوسط أو "المنزلة بين المنزلتين"، بل إنه أكد أكثر من مرة بأن هذا الأصل مبدأ ثابت في القرآن الكريم وفي كلام الرسول (ص)، ومعيار راسخ في كلام العرب وحكمهم شهدت عقولهم على صحته، وفي هذا يقول: "قال الله تبارك وتعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ المنبتّ [هو الذي أتعب دابته حتى عطب ظهره فبقي منقطعاً به] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى". وقال الله جل ذكره: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

مَعْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا". ولذلك قالوا: "خير مالك ما نفعك، وخير الأمور أوسطها، وشر السير الحقيقة [أي السير الشديد أو هو كف ساعة وإتاعب ساعة]، والحسنة بين السيئتين". وقالوا: "دين الله بين المقصر والغالي". وقالوا في المثل: "بينهما يرمى الرامي". وقالوا: "عليك بالسداد والاقتصاد ولا وكس ولا شطط" [أي لا زيادة ولا نقصان]. وقالوا: "بين المُمخّة والعَجَفَاء" [أي بين السمنية الكثيرة الشحم والهزيلة الضعيفة المنحنية الظهر]. وقالوا: "لا تكن حلوًا فتبتلع ولا مرًا فتلفظ"<sup>16</sup>.

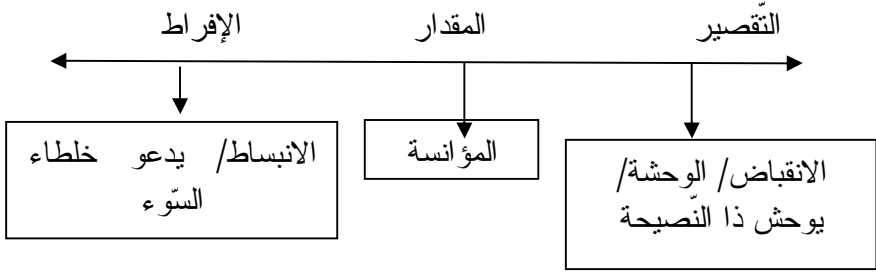
إنَّ أوَّل ما يلحظه المتنبِّع لمواضع تجلِّي أصل "المنزلة بين المنزلتين" هو اتِّساع مجالات استثماره وتطبيقه في كتابات الجاحظ لتشمل البلاغة والأخلاق والعواطف والجمال والفنّ وغيرها، وإذا كان هذا هو حال المجالات، فكذلك هو حال المصطلحات والتقنيات التي يحيل بها الجاحظ إلى ذلك الأصل، وتشي باعتماده مرجعية أساسية، ويأتي على رأس تلك التقنيات إبراز أوساط متعلّقة بالفضيلة أو الحسن بين طرفين كليهما رذيلة، وأمّا ما تعلّق بالمصطلحات التي ترتبط بالأصل السابق ارتباطاً وثيقاً، فأهمّها: المقدار والتوسط والاعتدال.

ولقد جعل الجاحظ من الأصل السابق في كثير من نصوصه الدّاخلية في ميدان الخُلُق والمعاملة والسلوك ميزانه الذي يعاير به الأمور، ويُخرج به وسطاً فاضلاً من طرفين مذمومين. يقول في واحد من تلك النّصوص: "إنَّ الحياء اسم لمقدار من المقادير ما زاد عن ذلك المقدار فسمّه ما أحببت. وكذلك الجود اسم لمقدار من المقادير، فالسرف اسم لما فضل عن ذلك المقدار. وللحزم مقدار، فالجبن اسم لما فضل عن ذلك المقدار. وللاقتصاد مقدار، فالبخل اسم لما خرج عن ذلك المقدار، وللشّجاعة مقدار، فالتّهوّر والخدب اسم لما جاوز ذلك المقدار"<sup>17</sup>.

واضح من النص السابق أنّ المصطلح الذي وظّفه الجاحظ للإحالة على أصل "المنزلة بين المنزلتين" هو مصطلح "المقدار" الذي يعدّ مكياً لا من بين مكاييل أخرى، سيأتي ذكرها، استطاع بموجبه فرز الكلمات الدالة على الأفعال الفاضلة والحسنة عن سواها من الكلمات الأخرى الداخلة في محورها، سواءً أكانت تلك الكلمات في مرتبة دنيا أو في مرتبة عليا، فكيف نتعرف، تبعاً لهذا، على الأفعال الحسنة والفاضلة، وما هي السبيل التي نسلکها للاتّصاف بها؟ يجب الجاحظ مستعينا دائماً بأصل "المنزلة بين المنزلتين" كمرجعية رئيسية: "من الأمور التي يوجب بعضها بعضاً: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضاء [...]. والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المبادعة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة [...]. ولكلّ شيء من هذا إفراط وتقصير، وإنّما تصحّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها [...]. وتمازج المنفعة بها إصابة مواضعها: فالإفراط في الجود يوجب التّبذير، والإفراط في التّواضع يوجب المذلة، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقتّ الخاصّة، والإفراط في المؤانسة يدعو لخطاء السوء، والإفراط في الانقباض يوحش ذا النّصيحة. وآفة الأمانة انتمان الخانة، وآفة الصّدق تصديق الكذبة، والإفراط في الحذر يدعو إلى ألاّ يوثّق بأحد؛ وذلك ما لا سبيل إليه. والإفراط في المضرة مبعثة على حربك، والإفراط في جرّ المنفعة غناء لمن أفرطت في نفعه عنك"<sup>18</sup>.

لم يستعمل الجاحظ في هذا النصّ مصطلح "المقدار" الذي يحيل به إلى "المنزلة بين المنزلتين" استعمالاً صريحاً، لكن هذا لا يمنع من القول بأنّه حاضر في ثناياه، فيقليل من التّصرّف يمكن العثور عليه تحت الإفراط وفوق التّقصير المذمومين، أو من خلال المعاني الممكن استخلاصها من عبارتي "إقامة الحدود" و"إصابة

المواضع"، فالمؤانسة، على سبيل المثال، مقدار وفعل حسن وفاضل؛ لأنّ فيه ينتفي فعل "الانقباض" الناتج عن الإفراط في "المؤانسة"، وينتفي منه أيضاً فعل "الانقباض" الناتج عن التّقصير في "المؤانسة". ولتوضيح العلاقات التي تربط بين هذه الأفعال بعضها مع البعض الآخر، والنتائج التي تنجم عنها نستعين بالشّكل الآتي العاكس لما هو موجود في النصّ السّابق والنّصوص المشابهة له:



ولا شك أنّ الميدان الأثير العاكس لمدى تعلّق الجاحظ بأصل "المنزلة بين المنزلتين"، هو ميدان البلاغة وفنّ القول عموماً، فلا نكاد نمرّ على نصّ من نصوصه التي خصّصها لمناقشة القضايا البلاغية، إلّا ألفيناه يتّخذ من الأصل السّابق مبدأه النظري الذي لا يفتأ يرجع إليه، ومحوره العام الذي يبلور فيه تصورات وآراءه، فبلاغة الكلام لا تستمدّ، في بعض مناحيها، من اللفظ ولا من المعنى، بل إنّها تتحقّق بمطابقة الأوّل للثاني، "وبالجملة إنّ لكلّ معنى شريفٍ أو ضيع، هزلٍ أو جدّ، وحزمٍ أو إضاعة، ضرباً من اللفظ هو حقّه وحظّه، ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه"<sup>19</sup>، والألفاظ لا توصف، في رأي الجاحظ، بالرفّة والعذوبة والخفّة والسهولة، ولا تجمع خصال البلاغة، ولا تستوفي خلال المعرفة، إلّا إذا كانت موقوفة على معانيها ومقصورة عليها دون ما سواها، لا فاضلة ولا مقصورة، ولا مشتركة ولا مستغلقة<sup>20</sup>، ولا يوفى المعنى كامل حقّه،

تبعاً لما سبق، إلّا إذا كان الاسم له طَبَقاً، وتلك الحال له وُقفاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً<sup>21</sup>.

يرى حمادي صمود أن هذه الطريقة التي يعتمدها الجاحظ في إبراز مكانم بلاغة القول، إنّما هي في حقيقة الأمر "سعي إلى منزلة بين منزلتين، يكون الدال في أولها عاجزاً عن استيعاب الحقل المعنوي المقصود فيقع المتكلم في العي [...]" ويكون في ثانيهما فائضاً عليه متجاوزاً لحدوده فيفتح باب الخل وينتقض قانون الجدوى في استعمال اللغة ويغدو الزائد على الحاجة خرقاً<sup>22</sup>.

وإذا كان الجاحظ قد سعى إلى المنزلة الوسطى حينما أراد حدّ بلاغة القول، فإنّه يستعين بالمنزلتين المذمومتين حينما يتعلّق الأمر بالكيفية التي يحدّ بها مفاهيم الآفات التي تنتقض عندها بلاغة القول ومنها: العيّ والخل والهذر. يقول الجاحظ بخصوص مصطلح العيّ: "إنّما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار، ووقع اسم العيّ على كل شيء قصر عن المقدار. فالعيّ مذموم، والخل مذموم"<sup>23</sup>. وأمّا ما تعلّق بمصطلحي الخل والهذر فيقول: "ما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستئثار والمال فذلك الفاضل هو الهذر وهو الخل وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبنه"<sup>24</sup>.

وعلى النهج نفسه الذي اعتمده في تحديد بلاغة الكلام، يمضي الجاحظ في بسط نظريته إلى الألفاظ، حيث إنّ بلوغ درجة البلاغة والنجاعة فيها، لن يتمّ إلّا بالاستجابة لذوق العصر وحاجاته، حيث أصبحت اللغة تكتسب تعلّماً لا سليفة، وتنفّس اللحن واللفظ الركيك والعاميّ بين الخاصّة والعامّة، وبعدّ العهد بفصاحة البدو ولغة الأعراب. فكيف وفقّ الجاحظ يا ترى بين بلاغة اللفظ ونجاعته وبين الاستجابة لذوق العصر ومقتضياته؟ إنّ الحلّ الأنسب الذي لجأ إليه الجاحظ، كما

كان يفعل في الغالب الأعمّ، هو تأطير المسائل اعتزالياً، وبلورتها ضمن الإمكانيات الإجرائية والتحليلية التي تمنحها الأصول الخمسة، ولقد وفقّ الجاحظ ها هنا بين بلاغة اللفظ وذوق العصر، بأن طالب بمنزلة بين منزلتين، حيث دعا إلى إتباع مسلك وسط بين وحشية الألفاظ وغرابتها من جهة، وعاميتها وابتذالها من جهة أخرى.

ومثّل الجاحظ للمسلك السابق ودلّ عليه حين قال عن الكتاب: "أما أنا فلم أر قوماً قطّ أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً"<sup>25</sup>، وأبرز المسلك نفسه حين بسّط المعاني التي تحملها عبارة الرسول (ص) "لا خلافة" حيث يقول شارحاً: "القصد من ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التّخلص إلى غرائب المعاني. وفي الاقتصاد بلاغ، وفي التّوسط مجانبة للوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه"<sup>26</sup>.

وحينما خاض الجاحظ في أمور السياسة ومسألة الخلافة، كان أصل "المنزلة بين المنزلتين" مصدره الذي يستقي منه الحلول، ودليله الذي ينير له السبيل، فعندما ناقش مثلاً مختلف الآراء التي حاولت تحديد السنّ التي أسلم فيها علي بن أبي طالب، لم يرض إلّا بما وافق معتقده ومنهجه الآخذ بأواسط الأمور، ولم يعتمد في فرز الحقّ عن الباطل، وفصل الخطأ عن الصواب إلّا على "المنزلة بين المنزلتين"، وفي هذا يقول: "قد علمنا بالوجه الصحيح، والشهادة القائمة أنّه أسلم وهو حدثٌ غريب، ولم نكدّب النّاقلين. ولم نستطع أن نزع أن إسلامه كان لاحقاً بإسلام البالغين؛ لأنّ المقلّ زعم أنّه أسلم وهو ابن خمس سنين، والمكثر زعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين، والقياس يوجب أن يؤخذ بأوسط الروايتين، وبالأمر بين

الأمرين. وإنما يعرف حق ذلك من باطله بأن تحصي سنيه التي ولي فيها، وسني عثمان، وسني أبي بكر، وسني الهجرة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، بعد أن دعا إلى الله وإلى رسالته، وإلى أن هاجر إلى المدينة، ثم تنتظر في أقاويل الناس في عمره، وفي قول المقلل والمكثر، فنأخذ بأوسطها، وهو أعدلها، وتطرح قول المقصر والغالي، ثم تطرح ما حصل في يدك من أوسط ما روي من عمره وسنيه، وسني عثمان، وسني عمر، وسني أبي بكر، والهجرة، ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، إلى وقت إسلامه. فإذا فعلت وجدت الأمر على ما قلنا، وكما فسرنا<sup>27</sup>.

وبما أنه لا مجال هنا لاستعراض تفاصيل هذا الموضوع جميعها، وقصد إتمام الصورة التي ارتسمت معظم أجزائها فيما مضى، نستعرض في الجدول الآتي مجموعة أخرى من النصوص الدالة التي تظهر هي كذلك تشبث الجاحظ بأصل "المنزلة بين المنزلتين" والتزام حدوده في كثير من القضايا والمسائل التي لم ينظر إليها إلا من خلاله:

| الموضوع  | النص الدال على التزام "المنزلة بين المنزلتين" مرجعية عامة                                                                                                                                                                                                                                                |
|----------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| - الجمال | - وأنا مبين لك الحسن. هو التمام والاعتدال. ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة، وكذقة الجسم، أو عظم الجارحة من الجوارح، أو سعة العين أو الفم، مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق؛ فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن، وإن عدت زيادة في الجسم <sup>28</sup> . |
| - الدين  | - دين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي <sup>29</sup> .                                                                                                                                                                                                                                               |

|                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |                                               |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------|
| <p>- والحدود حاصرةٌ لأُمور العالم، ومحيطة بمقاديرها الموقوتة لها، فكلُّ شيءٍ خرج عن الحدِّ في خُلُق، حتَّى في الدِّين والحكمة اللّذين هما أفضلُ الأُمور، فهو قبيحٌ مذموم. وأمّا الاعتدال فهو وزن الشّيء لا الكمية<sup>30</sup></p>                                                                                                                                                   | <p>- الخُلُق<br/>- الدِّين<br/>- الحكمة</p>   |
| <p>- اعلم أنّ كثرة العتاب سببٌ للقطيعة، وإطراحه كلّ دليلٌ على قلّة الاكتراث لأمر الصّدّيق. فكن فيه بين أمرين: عاتبه فيما تشتركان في نفعه وضرّه وذلك في الهيئات، وتجاو له عن بعض غفلاته تسلم لك ناحيته. وبحسب ذلك فكن في زيارته، فإنّ الإلاحاح في الزيارة يذهب بالبهاء، وربما أورث الملالة؛ وطول الهجران يعقب الجفوة، ويحلُّ عقدة الإخاء، ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة<sup>31</sup>.</p> | <p>- المعاملة</p>                             |
| <p>- إنّما العشقُ اسمٌ لما فضل عن المقدار الذي اسمه حبٌّ. وليس كلُّ حبٍّ يسمى عشقاً، وإنّما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار، كما أنّ السّرّف اسم لما زاد على المقدار الذي يسمّى جوداً، والبخل اسم لما نقص عن المقدار الذي يسمّى اقتصاداً، والجبن اسم لما قصر عن المقدار الذي يسمّى شجاعة<sup>32</sup>.</p>                                                                           | <p>- العواطف<br/>- الأخلاق</p>                |
| <p>- وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوَجَ منه إلى إفهام معانيه، حتّى لا يحتاج السّامع لما فيه من الرويّة، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السّفلة والحشو، ويحطّه من غريب الأعراب ووَحشيّ الكلام، وليس له أن يهذبّه جدّاً، وينقّحه ويصفيّه ويروّقه، حتّى لا ينطقَ إلّا بلُبِّ اللّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف</p>                                                                    | <p>لغة الكتب<br/>والمحادثات<br/>وأساليبها</p> |

فُضُولُهُ، وَأَسْقَطَ زَوَائِدَهُ، حَتَّى عَادَ خَالِصاً لَا شَوْبَ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا  
فَعَلَ ذَلِكَ، لَمْ يُفْهِمْ عَنْهُ إِلَّا بَأْنَ يَجِدُّ لَهُمْ إِفْهَاماً مِرَاراً  
وَتَكَرَّاراً.<sup>33</sup>

- وقد كتبت - مدَّ الله في عُمرِكَ - في الردِّ على المشبهة كتاباً  
لا يرتفع عنه الحاذق المستغني، ولا يرتفع عن الرِيض المبتدئ  
[...]. وهو مع ذلك كله كتابٌ قَصْدٌ، ومقدار عدلٌ، لم يفضل عن  
الحاجة، ولم يقصر عن مقدار البُغية. على أنَّ الكلام لا ينبغي  
أن يكثر وإن كان حسناً كله، إذا كان السامع لا ينشط له، وجاز  
قدر احتماله؛ لأنَّ غاية المتكلم انتفاع المستمع.<sup>34</sup>

- وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يحمل أصحابها  
على الجدِّ الصَّرف، وعلى العقل المحض، وعلى الحقَّ المرَّ،  
وعلى المعاني الصَّعبة، التي تستكد النفوس، وتستفرغ المجهود.  
وللصَّبر غاية، وللاحتمال نهاية. ولا بأس بأن يكون الكتاب  
موشحاً ببعض الهزل. وعلى أنَّ الكتاب إذا كثر هزله سَخف،  
كما أنَّه إذا كثر جدُّه ثَقُل.<sup>35</sup>

- وليكن كلامك بين المقصرِّ والغالي؛ فإنَّك تسلم من المحنة  
عند العلماء، ومن فتنة الشيطان. وقال أعرابيٌّ للحسن: علَّمني  
ديناً وسوطاً لا ذاهباً شطوطاً، ولا هابطاً هبوطاً. فقال له  
الحسن: لئن قلتَ ذاكِ إنَّ خيرَ الأمور أوسطُها [...] وقال علي  
بن أبي طالب كرم الله: "كن في النَّاسِ وسطاً وامشِ  
جانباً" [...] وكانوا يقولون "اكره الغلوَّ كما تكره التَّقصير".<sup>36</sup>

|                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                 |  |
|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--|
| <p>- وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد وقصرَّ عنهما أحد، صار الفاضل خطلاً والنقصير نقصاً. فالنَّاسُ لم يعيبوا الضَّحْكَ إِلَّا بِقَدْرٍ ولم يعيبوا المزح إِلَّا بِقَدْرٍ، ومتى أُريدَ بالمزح النَّفعُ، وبالضحك الشَّيْءُ الذي له جَعَلَ الضَّحْكَ، صار المزحُ جَدًّا والضحك وقاراً<sup>37</sup>.</p> |  |
|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--|

إن أقلَّ ما يمكن التعليق به على ما جاء في هذا الجدول، وعلى نصوص الجاحظ الأخرى المقتبسة قبل هذا الموضع، أنَّ اشتغالنا في هذا المقال كان على مدوِّنة متأثرة في عرض مجلِّدات ضخمة، وقد كان عملنا أن اخترنا من هذه المدوِّنة ما يكفي من النصوص التي تبرز مدى تأثر الجاحظ والتزامه بالفكر الاعتزالي عامة، وبأصل "المنزلة بين المنزلتين" بشكل خاص، وقصدنا إلى تنويع مصادر تلك النصوص قصداً، فاستقينا بعضها من "البيان والتبيين" و"الحيوان"، واستقينا بعضها الآخر من "الرسائل" و"البخلاء"، وحرصنا بعد هذا على أن تشمل تلك النصوص أغلب الميادين المعرفية التي خاض فيها الجاحظ؛ فلئن كان للبلاغة والأخلاق النصيب الأوفر من تلك النصوص، فإننا لم نغفل عن إيراد نصوص أخرى ولج الجاحظ في بعضها عالم الجمال والفن والعاطفة، وولج في أخرى مجالات سياسية ودينية واجتماعية، ومجالات مرتبطة بمنهجية الكتابة والتأليف والمعايير الواجب توفرها في اللغة والأساليب، وسعينا فوق هذا كله إلى إبراز كفايات تظهر أصل "المنزلة بين المنزلتين" في تلك النصوص؛ حيث تبين لنا أنَّ ظهور هذا الأصل قد كان على هيئات مختلفة، فرأينا كيف أنَّ بروزه يكون حين يستعمل الجاحظ الصيغة التي يبرز فيها فضيلة بين طرفين مذمومين، ويكون كذلك

من خلال استعمال المصطلحات الدالة عليه والمشييرة إليه باعتباره مرجعية أساسية، وذكرنا من هذه المصطلحات: المقدار، الحد، الاعتدال، والتوسط. وإذا رجعنا في ختام هذا المقال إلى الفرضية التي سعينا إلى إثبات صحتها— أفلا يحقّ لنا أن نقول إن أصل "المنزلة بين المنزلتين" لا يعدّ عند الجاحظ العمود الذي تأسست عليه الكثير من آرائه وتصوراتهِ وتحليلاته فحسب، بل إنّه رباط متين خالق لنوع من الانسجام الذي لا يتراءى إلّا من خلال النظرة الشاملة التي لا تنظر إلى كتابات الجاحظ إلا باعتبارها كلاً منظماً صادراً عن عقلية شغفت بالاعتزال والوسطية شغفاً، وآمنت بهما منهجاً للفكر وللقول وللعمل إيماناً.

إنّ الجاحظ بعد هذا كلّه لا يفصل بين ما هو عائد إلى القول وبين ما هو عائد إلى الفعل، لأنّ المبادئ التي ينهض عليها هذا، هي المبادئ نفسها التي ينهض عليها ذاك، ولقد أكدّ الفكرة حين وصف المعتزلة التي يحتلّ فيها مكانة متميّزة قائلاً: "والعمل عندنا" [...] كالقول"<sup>38</sup>، فإذا كان القول (مقام العلم) عند الجاحظ ماثلاً في إيمانه الراسخ بأصل "المنزلة بين المنزلتين"، فإنّ العمل (مقام الحال) عنده هو تجليات هذا الأصل في كتاباته في هيئات متنوعة وعلى أصعدة مختلفة. ولعلّ هذا ما أشار إليه أحد الباحثين حين قال: "وهكذا نجد فلسفة الجاحظ متساقطة ذات مبادئ تنطلق منها ولا تحيد عنها، ينطلق منها ويطبّقها في مختلف الموضوعات التي يعالجها"<sup>39</sup>.

ولئن تبين لنا بما فيه الكفاية أن التّطبيق الواسع لأصل "المنزلة بين المنزلتين"، يعدّ بلا ريب من الآليات الخالقة للانسجام في كتابات الجاحظ، فإنّ آليات أخرى يمكن أن يكون لها شأن عظيم في هذا الانسجام. أفلا يمكن مثلاً التأكيد على انسجام "الحيوان" الذي نُعت مراراً بالفوضى وعدم ترابط نصوصه، باستحضار أصل

"التّوحيد"، ثمّ البحث عن تجلياته ومدى التزام حدوده؟ وإذا أردنا بعد هذا كلّه أن نوسّع أفاق البحث إلى أقصى حدودها سالكين هذه السبيل نفسها المرسومة في هذا المقال، فما علينا إلّا ربط كتابات الجاحظ بـ"المناظرة" التي تعدّ الجنس العام الذي يؤطر أغلبها.

### الهوامش:

<sup>1</sup> - محمد الأمين المؤدّب، معالم وعوالم في بلاغة النّص الشعري القديم، ط1، مؤسسة الرّحّاب الحديثة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 2014-2015، ص36.  
\* يقول ابن منظور محدّدًا معاني الأصل اللّغوي للافتتان: "الرجل يُفَنّنُ الكلام أي يَشْتَقُّ في فنّ بعد فنّ [...] ورجل مِعَنٌ مِفَنٌّ: ذو عَنَنٍ واعتراض وذو فُنُونٍ من الكلام [...] افْتَنَّنَ الرجل في حديثه وفي خُطْبَتِهِ إذا جاء بالأفانين [...] افْتَنَّنَ الرجل في كلامه وخصومته إذا توسّع وتصرّف، لأنّه يقال افْتَنَّنَ الحمارُ بأنّنه واشْتَقَّ بها إذا أخذ في طَرْدِها وسَوَّقَها يميناً وشمالاً وعلى استقامة وعلى غير استقامة؛ فهو يَفْتَنُّ في طَرْدِها أفانين الطَرْدِ [...] وافتنّ: أخذ في فُنُونٍ من القول. والفُنُونُ: الأَخْلَاطُ من الناس. وإنّ المجلس ليجمع فُنُوناً من النّاس أي ناساً ليسوا من قبيلة واحدة [...] والتّفنّن: التّخليط؛ يقال: ثوبٌ فيه تَفَنّنٍ إذا كان فيه طرائق ليست من جنسه". أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج13، ط1، دار صادر، بيروت، 2000، ص326.

<sup>2</sup> - محمد الأمين المؤدّب، م. س، ص 38.

<sup>3</sup> - ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدّمة، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 2001، ص 763.

<sup>4</sup> - م. ن، ص. ن.

<sup>5</sup> - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج1، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، لبنان، 1996، ص 93-94.

\*\*من النصوص الأخرى التي تكتسي أهمية بالغة، وتصلح لأن تدرج في هذا السياق، قوله بخصوص ضرورة التنويع في التأليف: "وعلى أني عزمْتُ - واللهُ الموفقُ - أني أوشحُ هذا الكتابَ وأفصلُ أبوابه، بنوايرَ من ضروبِ الشَّعر، وضروبِ الأحاديث؛ ليخرج قارئُ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإنني رأيتُ الأسماعَ تملُ الأصواتَ المطربةَ والأغانيَ الحسنةَ والأوتارَ الفصيحةَ، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلَّا في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة.

وإذا كانت الأوائِلُ قد سارتُ في صغارِ الكتبِ هذه السَّيرةَ، كان هذا التدبيرُ لِمَا طالَ وكثُرَ أصْلَحُ، وما غابَتَا من ذلك كلُّه إلَّا أن تَسْتَفِيدُوا خيراً". م.ن، ج3، ص 7.

<sup>6</sup>- هيثم سرحان، "الحجاج عند الجاحظ: بحث في المرجعيات والنصيات والآيات"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع 115، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، صيف 2011، ص 75-76.

<sup>7</sup>- ينظر: محمد عبد الغني الشَّيخ، النَّثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 127.

\*\*\*في الموضوع نفسه، يقول ناجح سالم موسى المهنا واصفا كتاب الحيوان: "من لم يطلع على كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بحسبه لأول وهلة وكما يوحي إليه عنوانه كتاب يتضمن معلومات علمية بحتة عن الحيوان وما يتصل به، إلَّا أنَّ القارئ المتصفح له يجده كتاباً مشتملاً على تلك المعلومات العلمية إلى جنب ما هو ديني وأدبي واجتماعي يعكس صورة العصر العباسي الذي عاش فيه الجاحظ فضلاً عن العصور التي سبقته، ففي كل صفحة من صفحاته سجد البيت أو الأبيات أو القصيدة إلى جنب الآية القرآنية والحديث النبوي الشريف والحكمة العجيبة والنادرة الغريبة والنكتة اللاذعة والتعليق الذكي إلى جنب ما يورده من حكايات الأعراب وخرافاتهم". ناجح سالم موسى المهنا، الفكاهة والهزل في كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة الخليج العربي، مج 40، ع (3-4)، 2012، ص 63. ويقول علي بوملحم: "فالجاحظ كان كما قيل عنه بحق دائرة معارف، ألَّم بمختلف حقول المعرفة من فلسفة وكلام ودين وطبيعيات وحيوان ونبات وإنسان وأخلاق واجتماع وسياسة وتاريخ وأدب. وقد كتب في جميع الموضوعات تقريباً". علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1994، ص 463.

ويقول حنا الفاخوري في الصّدّد نفسه، واصفا كتاب "الحيوان": "هو موسوعة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي في تشعب أغراضها". حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص 551.

<sup>8</sup> - علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص 466.

<sup>9</sup> - الجاحظ، الحيوان، ج5، ص 155 - 166.

<sup>10</sup> - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص 25-26.

<sup>11</sup> - ينظر: مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1997، ص 57.

<sup>12</sup> - ينظر: م.ن، ص: 61، 69، 76.

\*\*\*- يقول علي عشري زايد مشيرا إلى هذا الموضوع: "لم تعرف المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة التّوبيب العلمي الدّقيق الذي هو أبرز خصائص المنهج العلمي، وإنّما كان طابعها الخلط والاستطراد الذي يخرج بالقارئ عن الخطّ الأساسي الذي يعالجه المؤلّف إلى موضوعات وقضايا فرعية أخرى لا تمتّ إلى الموضوع المطروح بكبير صلة. ويضلّ القارئ وسط هذه الاستطرادات الكثيرة العثور على الخيط الأساسي في فكرة المؤلّف. وإلى جانب هذا الاستطراد والخروج عن الموضوع الأصلي كان المؤلّف يبعثر الحديث عن القضية الواحدة أو الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب، مما يجهد القارئ في لمّ شتات تلك الفكرة وجمع أجزائها [...] وأخيرا لم يكن هناك ترابط علمي بين فصول تلك الكتب وأبوابها مما يفقدها وحدتها العلمية. علي عشري زايد، البلاغة العربية تاريخها ومصادرها ومناهجها، مكتبة الشباب، القاهرة، 1986، ص 33-43.

<sup>13</sup> - ينظر: حمادي صمود، التّفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السّادس، مشروع قراءة، منشورات الجامعة التّونسية، تونس، 1981، ص 297.

<sup>14</sup> - م.ن، ص 298.

\*\*\*\*- شرح ابن خلدون عبارة "مقام العلم ومقام العمل" المستثمرة في عنوان هذا المقال حين قال: "الفرق بين الحال والعلم [...] فرق ما بين القول والاتّصاف. وشرحه أنّ كثيرا من النّاس يعلم أنّ رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من

الشريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفرّ عنه واستتفّ أن يباشره [...] فهذا إنما حصل لهم رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتّصاف. ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأنّ رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأوّل وهو الاتّصاف بالرحمة وحصول ملكتها. فمتى رأى يتيما أو مسكينا بادر إليه ومسح عليه والتمس الثّواب في الشّفقة عليه [...] وليس الاتّصاف بحاصل عن مجرد العلم حتّى يقع العمليتكّر مرارا غير منحصرة". عبد الرحمن ابن خلدون، المقدّمة، ص 583.

\*\*\*\*\* يقول الشهرستاني موضّحا سبب القول بالمنزلة بين المنزلتين وارتباط ظهور المعتزلة به: "السبب فيه أنّه دخل واحد على الحسن البصري فقال: يا إمام الدّين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج. وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر. والكبيرة عندهم لا تضرّ مع الإيمان، بل العمل على مذهبه ليس ركنا من الإيمان. ولا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة. فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا؟

فتفكّر الحسن في ذلك. وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا، ولا كافر مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر. ثمّ قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. فسمي هو وأصحابه معتزلة. محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، تح: محمد سيد الكيلاني، ط2، درا المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1975، ص 48.

<sup>15</sup> -الجاحظ، الرسائل، الرسائل السياسية، قدّم لها وبوّها وشرحها علي أبو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2002، ص 380-381.

<sup>16</sup> -الجاحظ، البخل، تح: طه الحاجري، ط7، دار المعارف، القاهرة، 1990، ص 186-187.

<sup>17</sup> -الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، ج1، ص 202-203.

<sup>18</sup> -الجاحظ، الرسائل، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ص

110-111.

- 19-م.ن، ج3، ص 40.
- 20-م.ن، ص 63.
- 21-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 92-93.
- 22-حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، ص 286.
- 23-الجاحظ، م.س، ج1، ص 116.
- 24-م.ن، ص 99.
- 25-م.ن، ص 86.
- 26-م.ن، ص 255.
- 27-الجاحظ، كتاب العثمانية، تح: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991، ص 5-6. ينظر أيضا: الرسائل، ج4، تح: عبد السلام محمد هارون، ص 20-21.
- 28-الجاحظ، الرسائل، ج2، تح: عبد السلام محمد هارون، ص 162.
- 29-البيان والتبيين، ج1، ص 202. ينظر أيضا:
- 30-م.ن، ص.ن.
- 31-م.ن، ص 127-128.
- 32-الجاحظ، الرسائل، ج3، تح: عبد السلام محمد هارون، ص 139-140.
- 33-الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 89-90.
- 34-الجاحظ، الرسائل، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، ص 289.
- 35-م.ن، ج3، ص 153.
- 36-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 255-256.
- 37-الجاحظ، البخلاء، ص 7.
- 38-الجاحظ، الرسائل، الرسائل السياسية، قدم لها ويوبها وشرحها: علي أبو ملحم، ص 363.
- 39-علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص 400.